الحكمة والفراسة في الفهم والتقدير وفي الحياة

19-2-2004

والمعرفة والحكمة تمر بمراحل وتفاعلات، فهي تراكم أولا، ثم تستوعب، وهنا تتعدد المسارات من الإنجاز والفشل والمتابعة والصيانة والتوقف، لتكون المحصلة النهائية "إبداع"، ولكنها في الحقيقة ليست نهائية، بل هي حلقة في دائرة مغلقة، فتتحول فورا إلى مرحلة تراكم، ويجري استيعابها وإخضاعها لتفاعل جديد، هكذا في متوالية أو جدلية غير منتهية يفترض أن يقترب بها الإنسان من الصواب والحكمة والفائدة والمنفعة.

بقلم إبراهيم غرايبة

مواد ذات علاقة

الحيرة والشك والشبكية في الرؤية والتفكير

"هذه مقالة لها علاقة بمقالتي "فهم الأحداث وتحليلها" و"الحيرة والشبكية" وبمقالات وقراءات أخرى كثيرة، وقد تتبعها مقالات أخرى، وقد يفيدني القراء الكرام والأساتذة والأصدقاء الذين يتفضلون بقراءتها بملاحظات وأفكار تصححها وتطورها".

نواجه كل يوم أسئلة كثيرة في العمل والفهم والتحليل والحياة اليومية، ولا نجد المعلومات المباشرة والخبرات الواضحة والكافية لمواجهتها، فنجتهد في قراراتنا وفهمنا وتقديرنا، ونستعين في ذلك غالبا بما وهبنا الله من خبرة عامة وحكمة وفراسة، ونتبع إشارات ومشاعر غامضة، وقد نوفق في الاختيار والتقدير، وقد لا نوفق، ونقول دائما: إن التوفيق من الله عز وجل.

ونلجأ للاستخارة كما علمتنا السنة النبوية، وهي في جوهرها استعانة بتلك البوصلة المغروسة فينا، فبعد الصلاة والدعاء، تتّبع ما يشرح الله له صدرك، وفي التمييز بين الصواب والخطأ والإثم وغيره يرشدك الهدي النبوي إلى أن تلجأ إلى قلبك وحيائك.

فالإثم ما حاك في الصدر وخشيت أن يطلع عليه الناس، والبر ما ارتاح له صدرك، ولكنها قلوب يجب أن تكون عامرة ومدربة على التقاط الحكمة ومعرفة الصواب من الخطأ، وفي الحديث أيضا "إذا لم تستح فاصنع ما شئت" ففي المعنى الظاهر للحديث أن المسائل والأعمال تعرض على مركز الحياء فإن استحى منها الإنسان فهي خطأ، وإن لم يستح فهي صواب، وليس المعنى الوحيد للحديث هو أن من فقد الحياء يفعل أي شيء، وهذا قول الماوردي في كتاب "أدب الدنيا والدين".

الحكمة موجودة ومتاحة، ولكن المسألة في القدرة على اكتسابها وتحصيلها، فالإنسان يدرب نفسه ويطور ملكاته ويهيء نفسه لاستيعابها وفهمها، كما يصقل الزجاج ويعالج ليكون مرآة تعكس الصور، فالصورة موجودة في الفضاء ولكن المرآة هي التي تربنا إياها كما هي، وقد تعالج المرآة على نحو يجعلها تقدم الصورة وتعكسها على نحو مختلف عن الأصل، كأن تكون غير مستوية لتشوه وعجز في الصنعة، أو محدبة أو مقعرة على نحو مقصود وواع لأغراض وأهداف شتى، فقد تصمم الزجاج على نحو يستقبل أشعة الشمس في نقطة بالغة الصغر فتولد طاقة كبيرة تستخدم حسب حاجات الإنسان وأغراضه.

ويحدث كثيرا أن تمنحنا عبارة نقرأها أو نسمعها حكمة ومنهجا يغير فينا أكثر بكثير مما يظن صاحبها، وتدلنا كثير من الكتب التي نقرأها على مواضع للفهم والرؤية ليست في الكتاب وربما لم تخطر ببال المؤلف، بل وتغير في حياتنا وأسلوب عملنا، ونستجيب على نحو مختلف عن الاستجابة المباشرة والمتوقعة من قراءة الكتاب، فالحكم والأفكار تتفاعل في شبكة من المسارات والشروط المختلفة وغير المحدودة.

كالماء الذي يسقط من السماء، فيجد أنواعا مختلفة من الأرض والبذور، فتختلف الزروع والثمار والاستخدامات والفوائد والأضرار أيضا، وقد يتوفر للإنسان موارد كثيرة مختلفة لكنها تنتظر شيئا يبدو بسيطا ومتاحا وربما نادرا لينتج بها أشياء كثيرة تبدو مختلفة عن مكوناتها الأصلية، فالاسمنت والتراب والرمل والحديد لا يمكن أن تتحول إلى جدران وأبنية وجسور بدون الماء!

تفاعل المعطيات والموارد غير تجميعها أو تنظيمها أو توليفها أو بعثرتها، ففي التفاعل تحدث متوالية تضاعف النتائج، وما تحصل عليه ليس مجموعها بل حاصل ضربها ومضاعفتها، وقد تتجه المعطيات المختلفة نحو محصلة سالبة تناقص من قيمتها، أو تسوقها على نحو مدمر ومكلف.

والأمر ليس حتميا لا خيار للإنسان فيه، ولكنه يقدر على توظيف وتدريب ملكاته الفكرية والروحية والعقلية وتطويرها، كما يدرب جسمه وعضلاته، وبالطبع فإنه يمكن أن يصل في ذلك إلى مستوى متقدم، كما يصل العداءون وأبطال الوثب والسباحة وكرة القدم، وإذا لم تطور الملكات والاستعدادات الروحية والعقلية فإنها تضمر كما يضمر الجسم وتترهل، ويمكن أن يوصل الإنسان نفسه إلى مرحلة من القدرة والفراسة على التحليل والمعرفة والاستماع للحكمة وفهمها.

والمعرفة والحكمة تمر بمراحل وتفاعلات، فهي تراكم أولا، ثم تستوعب، وهنا تتعدد المسارات من الإنجاز والفشل والمتابعة والصيانة والتوقف، لتكون المحصلة النهائية "إبداع"، ولكنها في الحقيقة ليست نهائية، بل هي حلقة في دائرة مغلقة، فتتحول فورا إلى مرحلة تراكم، ويجري استيعابها وإخضاعها لتفاعل جديد، هكذا في متوالية أو جدلية غير منتهية يفترض أن يقترب بها الإنسان من الصواب والحكمة والفائدة والمنفعة.

وأذكر أني قرأت نصف بيت من الشعر لمظفر النواب قبل سنوات غير حياتي كليا وهو قوله "تستصلح السفن وهي مبحرة" ووجدت

أني كنت أعاني من مرض التأجيل بسبب التحضير الطويل لأعمال يجب أن تبدأ قوية وكاملة، وأني مصاب بهاجس الكمال، وكنت أظن ذلك أمرا جيدا أعتز به، ولكني وجدته مرضا وعيبا يجب التخلص منه، فالتحضير والتطوير عملية مستمرة ترافق العمل دائما في حلقة غير منتهية، من التراكم والاستيعاب والإبداع الذي يتحول فورا إلى تراكم يجري استيعابه من جديدة لأجل إبداع آخر، وليس خطا من التراكم والاستيعاب الذي يوصل إلى الإبداع المنقطع عما سبقه.

وكما يكون الاستماع هو أساس التعلم، فإنه أيضا أساس اكتساب الحكمة.

فالحكمة تحل في اللغة التي تستوعبها وتحولها إلى رموز، يقدر الإنسان على التقاطها وفهمها واستيعابها، والصوت يستوعب اللغة وينقلها، والاستماع هو وسيلة الإنسان إلى استقبال الصوت وفهمه وتحليله، ويتسع الاستماع ليشمل القراءة، فالقراءة هي استماع، والتأمل والنظر والتفكير هو استماع للصمت أو محاولة لالتقاط الحكمة من الكون والفضاء ومن مظانها.

ما معنى قوله تعالى:"إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد" (حكمة)، "ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون" (معرفة)، "لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى" (حفظ وأمان)، "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون، إن هم إلا كالأنعام أو أضل"، "لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها"، "إنما يستجيب الذين يسمعون"، "إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون"، "إنهم عن السمع لمعزولون"، "وكانوا لا يستطيعون سمعا".

الحكمة عبر عنها بالصوت، الوحي من الله مباشرة أو بالرسل، وربما كان العلم الذي تلقاه آدم عليه السلام بالاستماع بمفهومه الشامل، وليس فقط الاستماع الفيزيائي، والنداء الأول للرسالة كان "اقرأ"، والتعلم

والتعلم بالصوت أيضا، ونقل العلم وحفظه عبر الأجيال وعبر الناس المعلمين والمتعلمين كان بالصوت. فالأعمى يمكن أن يكون عالما وعبقريا ولكن الأصم لا يتعلم إلا القليل.

والصوت طاقة مادية لا تفنى.

هذه الموجات التي تسبح في الفضاء يتلقاها الناس ويمكن أن تكون قاتلة، وأصوات الطائرات أحيانا تحطم الزجاج وكثير من الناس قتلتهم الأصوات، وهناك جمال صوتي، وتلوث صوتي، والسكون صوت نحتاجه ونفتقده أيضا.

فالصوت يمكن التقاطه وطالما أنه موجود فيمكن الوصول إليه، وما تفعله الأطباق والأجهزة التي يستخدمها الإنسان هو التقاط موجات الصوت الموجودة في الفضاء.

والسؤال، هل نستطيع أن نلتقط الحكمة الأزلية التي بثت في الفضاء من الوحي وأقوال الأنبياء والحكماء والصالحين؟

لا أتحدث بالطبع عن أجهزة متقدمة وتطوير تقني، ولكن عن الاستماع والقول، "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه". كيف نستمع إلى الحكمة ونتبعها "ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا"، كيف نقدر على الاستماع، وكيف نسمع الأصوات ونفهمها؟

ذلك الناي ماذا يفعل صوته بالناس والشجر والكائنات؟ حتى الجمال تستمع إليه وتمضي تسير بلا كلل أو شعور بالتعب، وكانت تموت وهي تسير، والأيل يسمعها الصيادون صوت الناي، فتستسلم بهدوء حتى يمسكوا بها!

الناي ليس عزفا، بل هو نفخ، ولجلال الدين الرومي في كتابه "المثنوي" قول مدهش في الناي، تلك القطعة من الشجر متاحة لكل من يريد بلا ثمن، حين تنظف من الداخل، ويجب أن تنظف من الداخل وإلا فإنها لن تعمل، وتحرق حرقا خفيفا، ويجب أن تحرق حتى تفتح مفاصلها ويتحرك فيها الهواء جيدا، وإلا فإنها لن تعمل تصبح قادرة على إخراج صوت عظيم مؤثر مدهش.

ولكنه صوت جاء من النفخ وليس العزف، النفخ الذي جاء في قصبة نظفت من الداخل وحرقت في بعض أجزائها، كأن النظافة من الداخل والحرق أو الألم يشكل بيئة ضرورية أو شرطا للصوت، والنفخ نفس يخرج من جسم الإنسان، فهو طاقة عظيمة مليئة بالأسرار، منها أن النفس هو الحياة، فالحياة تستمر وتمضي بالأنفاس التي تدخل إلى جوف الإنسان وتخرج منه، فماذا يتلقى الإنسان مع النفس وماذا يصدر عنه لتستمر الحياة وتمضي، الناي يقول جزءا قليلا من الإجابة، وكلما استطاع الإنسان أن يستمع يزداد علما.

ويجد أتباع التأمل واليوغا أساس الصفاء والعلم بالنفس العميق والزفير الطويل الهادئ، فهذا يؤدي إلى التركيز الطويل والعميق، وتنظيم النفس ينظم الحياة.

إننا نفعل ذلك تماما في الصلاة والدعاء والتلاوة، فنحن نتجه إلى الداخل في هدوء وفي أصوات تنظم أنفاسنا، ونستمع لأنفسنا ونتحدث لنستمع إلى أنفسنا ونسمع، والتلاوة مهما كانت سرية يجب أن تكون تلفظا نسمع به أنفسنا ونسمع به أيضا، فقد أصدرنا طاقة متموجة أطلقناها في الفضاء لتمضى بلا انقطاع ولا انتهاء.

قال تعالى: "وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا"

والأصوات لا تتشابه فكل لفظة تحمل شخصيتها الخاصة، وتأخذ شكلا لموجتها تبعا لحروفها وقائلها أيضا، وتظل موجة خاصة أبدية، وتلتقط من بين الموجات بعلامتها الخاصة كما يلتقط مؤشر الراديو موجة خاصة نبحث عنها، ثم يعيد بثها، وكما تؤدي الفروق القليلة بين الأشياء والمكونات (الخريطة الجينية مثلا وسلاسل الأحماض الأمينية) إلى نتائج مختلفة كثيرا عن بعضها (البروتينات والسموم، والكائنات الحية أيضا) تكون الفروق بين الأصوات، ونتائجها والحكم والمعرفة.

ومن القصائد الجميلة، والشعر صوت أيضا، ولا يصلح إلا أن يقال ويستمع إليه، أبيات لبدر شاكر السياب عما يبعثه صوت المطر "أنشودة المطر"

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟
وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع
بلا انتهاء؟ كالدم المراق كالجياع
كالأطفال كالحب كالموتى هو المطر"

لو كنت قادرا على القول بدون هذه المقدمات: لنستمع، وسنجد الحكمة التي نبحث عنها، سنسمعها.

ولنقل أيضا، فالله يسمعنا، وقد نسمع من يقدر على السمع، الناس والأحبة والأصدقاء والأجيال والكائنات، فالكلمة الطيبة "كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها".

ما معنى قوله تعالى في ذم قوم فرعون عندما أهلكهم "فما بكت عليهم السماء والأرض" ألا يعني ذلك أن السماء والأرض تسمعنا؟ المكان يسمع ولعله التقط كثيرا من الأصوات، ويسمعنا أيضا ونسمعه، "بلدة طيبة ورب غفور" ولكنها بكفر النعمة تكون شيئا آخر

"فأبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل" "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدا، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون" الشكر يجعل البلد طيبا، فالأرض تسمع الدعاء والحمد والعطاء فتطيب، أو تتلقى الكفر والكآبة والقلق والنفاق فتخبث.

ولكنا في استماعنا ربما نحتاج إلى شارات ورموز مادية نميز بها ونتعلم، إنها مثل القرائن والأدلة المادية التي تعين في الفهم والاستنتاج والمعرفة.

وفي التراث العربي والإسلامي الكثير من القصص والأمثلة عن إدراك الإشارات والرموز، وهذا ما يطبقه أهل الفراسة في معرفة الناس وأنسابهم، وتتبع الآثار، والحكم في الأحداث والقضايا، ويقال دائما إن الأزهار متاحة لجميع الكائنات، ولكن النحل وحده يصنع منها العسل، وربما يكون هذا موضوع مقالة أخرى، وبالله التوفيق.